خصائص القرآن الكريم
دراسة قرآنية

الدكتور
مشعان سعود عبد العيساوي

الحمد لله والصلاة والسلام على اشرف رسل الله، وعلى آله وصحبه أجمعين

(وبعد) فهذه دراسة عن كتاب الله تعالى تناولت فيها الخصائص والسمات العامة لهذا الكتاب، ولاشك أن له سمات وخصائص تميزه عن سواه، وتجعله يبرز من بين الكتب السماوية الاخرى. وكانت هذه الخصائص مستوحاة مما جاء في القرآن نفسه، وحديث القرآن عن نفسه لابد أن يكون أكثر صدقاً ودلالة ووضوحاً، وحاولت أن ألم بما دل عليه من خصائص واعرضها في هذه الباحث، لعلي أكون قد قدمت خدمة لكتاب الله، وأفدت المكتبة القرآنية بشيء ولو كان فيه تكرار وإعادة، ولكن لم ار من تعرض لها مجتمعة ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾.

وقسمته على خمسة مباحث:

المبحث الأول: أعجاز القرآن.

المبحث الثاني: تفصيله وبيانه.

المبحث الثالث: عربيته

المبحث الرابع: شموليته لنواحي الحياة

المبحث الخامس: سلامته من التحريف والتبديل.

واسأل الله أن يجنبني الزلل، وأن يتقبل مني خالص العمل.

المبحث الأول: إعجاز القرآن

جرت سنة الله في خلقه على عباده المكلفين أنه حينما يرسل إليهم رسولاً أن يؤيده بدليل يثبت حجة دعواه، ويقوى قضيته ببراهين واضحة وساطعة تجعل الناس يضطرون إلى الاعتراف بصدق مدعاه وهو ما اطلق عليه بـالمعجزات. أذاً فالمعجزة: أمر خارق للعادة لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثلها، وهي بمثابة قول الله: صدق عبدي في كل ما يبلغ عني[1].

وقد أيد الله ﷺ انبياءه بمعجزات شتى وتحداهم أن يأتوا بمثلها لتكون الحجة عليهم كاملة والالزام مقنعاً، وكانت لرسول الله ﷺ معجزات كثيرة، كان في مقدمتها القرآن الكريم وهو الذي وقع به التحدي دون سواه[2].

ووجه الاعجاز في القرآن أن الله تحدى الخلق كلهم إنسهم وجنهم على أن يأتوا بمثله إن كانوا يشكون أنه ليس من عند الله وأنه كلام بشر[3]. ليدلل ويثبت أن هذا القرآن هو من عنده سبحانه وليس من صنع أحد من البشر، فلما عجزوا عن الاتيان بمثله وعن محاكاته دل أنه صادق فيما يقول أنه من عند الله.

ولذلك صرفهم عن كل ما طلبوه من المعجزات الاخرى ونبههم إلى هذه المعجزة العظمى الدالة على صدقه فقالﷻ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[4]. أي (الم يكفهم آية مغنية عن سائر

---

(١) ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١/ ٧خ، وتفسير المنار لرشيد رضا: ١/ ٢١٧.

(٢) ينظر اعجاز القرآن للباقلاني: ١/ ٨، واصول الدين الإسلامي لرشدي عليان: ٢٨٣.

(٣) ينظر دلائل لأعجاز لعبد القاهر الجرجاني: ٣٦٥.

(٤) سورة العنكبوت: ٥٠-٥١.

الآيات أن كانوا طالبين للحق غيره متقنين هذا القرآن الذي تدوم تلاوته عليهم في كل مكان وزمان، فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحل، كما تزول كل آية بعد كونها، وتكون بمكان دون مكان، أن في مثل هذه الآية الموجودة في كل مكان وزمان إلى آخر الدهر لرحمة لنعمة عظيمة لا تنكر وتذكرة لقوم يعلمون)[1] وقد ورد التحدي في آيات عدة تطالب البشر أن يأتوا بمثله فعجزوا وبهتوا وقد تنوع هذا التحدي وكان على مراحل:

١- فتحداهم على أن يأتوا بمثله جميعاً كما قال تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾[٢].

٢- وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله كما قال: ﴿أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وأدعوا من استطعتم من دون الله أن كنتم صادقين﴾[٣].

٣- ثم تحداهم بسورة مثله فقال سبحانه: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله أن كنتم صادقين﴾[٤].

٤- ثم تحداهم بسورة من مثله فقال: ﴿وأن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله أن كنتم صادقين﴾[٥].

---

(١) الكشاف للزمخشري: ٣/ ٢٠٩.

(٢) الاسراء: ٨٨.

(٣) هود: ١٣.

(٤) يونس: ٣٨.

(٥) البقرة: ٢٣.

على أن بعض العلماء خالف في هذا الترتيب وجعل سورة يونس قبل سورة هود أي التحدي بسورة قيل التحدي بعشر سور[1].

وعلى أية حال فقد حصل التحدي بانواعه، واكدت الآيات كلها أنهم لن يستطيعوا وأنهم عاجزون، وقد طالبتهم بأكثر الاساليب اثارة، وحركت فيهم المشاعر. يقول الطبري رحمه الله عند تفسير قوله ﷻ: ﴿أن كنتم في ريب...﴾ أي (أن كنتم في شك وهو الريب مما نزلنا على عبدنا محمد ﷺ من النور والبرهان وآيات الفرقان أنه من عندي وأني الذي أنزلته إليه، فلم تؤمنوا به ولم تصدقوه فيما يقول فأتوا بحجة تدفع حجته، لأنكم تعلمون أن حجة كل ذي نبوة على صدقه في دعواه النبوة أن يأتي ببرهان يعجز عن أن يأتي بمثله جميع الخلق، ومن حجة محمد ﷺ على صدقه وبرهانه على نبوته وأن ما جاء من عندي عجز جميعكم وجميع من تستعينون به مكن أعدائكم وانصاركم عن أن يأتوا بسورة من مثله، وأذا عجزتم وأنت أهل البراعة في الفصاحة والبلاغة والدراية فقد علمتم أن غيركم عما عجزتم عنه من ذلك أعجز)[2] وهذه المطالبة في الايتان بمثله بهذه الصورة أنما هي تعجيز لهم وبيان لانقطاعهم وأن الحجة قد قامت عليهم وأن هذا منتهى العجز وسقوط القدرة[3]،

وقوله ﷻ ﴿فأن لم تفعلوا ولن تفعلوا...﴾[4] غاية التبكين ومنتهى أزاحة العلل، وقسم أطماعهم في ارادة ما يرومون تبديله أو الاتيان بمثله[5]. وأن هذا في حكم المستبعد حتى لو تظاهر الانس والجن على ذلك.

---

(١) ينظر البرهان للزركشي: ٢/ ١١٨، والاتقان للسيوطي: ٤/ ٤.

(٢) جامع البيان: ١/ ١٦٥.

(٣) ينظر الكشاف: ١/ ٢٤٦، و١/ ٢٣٩.

(٤) البقرة من الآية: ٢٤.

(٥) روح المعاني: ١/ ١٩٧و ١٥/ ١٦٧.

وأما الدليل على أنهم قد عجزوا ولم يقابلوا هذا التحدي فهو الواقع فمع (تكاثر عددهم وتهالكهم على المغالبة، وكانوا في غاية البلاغة ونهاية الفصاحة، فلما عجزوا عن ذلك علم عادة أنه معجوز عنه ابد الدهر، إذ لا يتصور زيادة على ما كانوا عليه من عدد المعارضة وأسبابها))(1)

ويقول الباقلاني: (أنه تحداهم إليه حتى طال التحدي وجعله دلالة على صدقه ونبوته وتضمن أحكامه استباحة دمائهم وأموالهم وسبي ذريتهم فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا)(2). فإفصاحهم عن جوابهم، وسكوتهم عن معارضته وعدولهم إلى الحرب مع أنهم أهل الفصاحة واللسان دليل على عجزهم عن محاكاته، وإلا لفعلوا ما هو أهون من الحرب(3).

ولم يكن ذلل العجز مقتصراً على زمن دون زمن وأنما هو حكم مؤيد افهمته الآية الكريمة: ﴿ولن تفعلوا...﴾ فلم يجزوا أحد على معارضته الاباء بالعجز الواضح والفشل الفاضح على مر العصور الدهور، لأن مجال المجالات مفتوح على مصراعيه أمام العالم إلى أن تقوم الساعة. لكنه دين الله وكتابه الخالد(4)، والحجة الواضحة الكاملة فما ذا بعد العجز إلا الاعتراف بصدقه وأنه من عند الله وصدق الله أذ يقول: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ...﴾(5)، أي فأن

---

(1) الجرجاني على الكشاف.

(2) اعجاز القرآن للباقلاني: 1/ 26.

(3) ينظر الجامع لأحكام القرآن: 1/ 77.

(4) ينظر النبأ العظيم لدراز: 44-45.

(5) سورة هود: 14.

لم يستجب أحد ممن تحدى بالقرآن ولم يأتوا بشيء فيجب أن يتيقنوا أنه ليس من كلام محمد ولا افترائه بل هو من عند الله منزل من السماء[1].

ولا نريد أن نطيل الكلام عن أعجاز القرآن مع أهميته، فقد أشبع بحثاً ودراسة قديماً وحديثاً، والمكتبة الإسلامية مليئة بالمؤلفات في اعجاز القرآن، وأنما ذكرنا ما دلت عليه الآيات في ذلك. وتركنا تفصيل وجوه الاعجاز وما هو الامر المعجز واكتفينا بأن القرآن معجز قد تحدى الله به البشر.

(١) ينظر جامع البيان: ١٢/ ١٠.

المبحث الثاني: القرآن مفصل مبين

إن من خصائص هذا الكتاب الخالد كونه مفصلاً مبيناً، واصبحت هذه السمة بارزة وشاخصة عليه، وقد وصف القرآن نفسه بهاتين السمتين في عشرات من الآيات الكريمة. فقد يرد وصف القرآن ككل بذلك، وقد توصف بعض الآيات، وقد يذكر حكم ما ويعقب عليه بالتفصيل أو البيان.

وهكذا فحقيقة تفصيله وبيانه واضحة في كل القضايا التي يتناولها، فهو لا يترك القارئ في حيرة أو عماية، ولا يدع للغموض أن يحجبه عن الانتفاع به، فليس بين قارئه وبينه حدود أو سدود ولا معميات ولا الغاز أو طلاسم، لقد وردت هاتان الصفتان والخصيصتان للقرآن في مواضع عدة من القرآن الكريم وجمعت بينهما في موضع واحد لما رأيت من تقارب معانيهما ومدلولهما، ولا أقول اتحادهما وأن ذهب بعض المفسرين إلى تفسير أحدهما بالاخر فيفسرون التفصيل بالبيان والتبين بالتفصيل. ولكن عند التدقيق لغوياً واستعمالاً نجد أن بينهما فرقاً.

فالتبين معناه بعد الشيء وانكشافه، يقال بأن الشيء وأبان اتضح وانكشف، وفلان أبين من فلان أي أوضح كلاماً منه(١).

وأما التفصيل: فهو يدل على تميز الشيء من الشيء وأبانته عنه، يقال فصلت الشيء فصلاً، والفيصل: الحكم، والفصيل: ولد الناقة إذا انفصل عن أمه، والمفصل: اللسان: لأن به تفصل الأمور وتميز، هكذا قال ابن فارس(٢).

وقال الراغب: والبيان: الشكف عن الشيء، يقال بأن واستبيان وتبين،

---

(١) معجم مقاييس اللغة لأبن فارس: ١٤٧.

(٢) المصدر نفسه: ٨١٨.

وقد بينته، ويقال آية مبينة اعتباراً عن بينها وآيات مبينات[1].

وقال عن التفصيل: الفصل إبانه أحد الشيئين من الاخر حتى يكون بينهما فرجة[2]. وهكذا نرى التقارب واضحاً في مدلول الكلمتين، فالبيان إنما هو إيضاح وكشف كما أن التفصيل إبانة وتميز، ولذا قارب الزجاج بينهما قائلاً: تقول العرب أبان الشيء فعلاً لازماً بمعنى أظهر واتضح، وتقول أبان الرجل كذا إذا أظهره وفصله عن غيره فما شأنه أن يشتبه به[3].

ولكن يبقى أن المدلول الدقيق للكلمتين مختلف فيما يترتب عليهما من نتائج، فقد يكون الشيء في نفسه واضحاً مكشوفاً، لكنه قد يختلط مع غيره في جملة واحدة وقد يكون التمييز للشيء حاصلاً، مع بقاء بعض الغموض فيه.

فلا جرم أن إطلاق القرآن لكل لفظة في محلها مقصود، وهذا من أسرار هذا الكتاب الذي يعجز البشر في محاكاته وتقليده.

وسنشير مع هاتين الخصيصتين كلاً على انفراد لنرى على ضوء اقوال المفسرين المقصود بهما لنرى كيف جاء هذا الكتاب بخصائص تميزه عما سواه.

أولاً: كونه مبيناً

ويقصد ببيانه هنا: أن القرآن جاء واضحاً في نفسه بيناً لا غموض فيه، كما أنه جاء في الوقت نفسه مبيناً لغيره، أي لما يحتاج إليه في مصالح العباد في الدنيا والآخرة. فالمبين –سواء كان اسم فاعل أو مفعول– يطلق على القرآن الكريم سواء كان في عمومه أو في مفردات أحكامه وسائر آياته.

---

(١) المفردات للراغب الاصبهاني: ٦٩.

(٢) المصدر نفسه: ٣٨١.

(٣) ينظر تفسير المنار لرشيد رضا: ١٢/ ٢٥١.

فمن الآيات التي اشارت إلى كون آياته واضحات مكشوفات قولـــهﷻ: ﴿ولقد أنـزلنا إليك آيات بينات. . .﴾[1]

وقوله ﷻ: ﴿قد بينا الآيات ...﴾[2]

وقولهﷻ: ﴿ولقد أنـزلنا إليك آيات مبينات...﴾[3]. فقد اشار المفسرون في معرض تفسيرهم للبينات هنا: (أنها واضحات مكشوفات مما يهدي إلى الحق ويفرق بين الحق والباطل)[4]. فالبينات جمع بينه، وهي الحجة والشاهد، أو واضحات مبينات[5].

أي إن ما جاء فيه أصبح واضحاً قوى الحجة والبرهان. يقول الرازي: أن البينات مأخوذ من بين بمعنى تبين كما تقول في المثل: قد بين الصبح لذي عينين)[6] ذلك أن ما ورد من آياته تفهم الحجة القوية التي لا تدفع على سامعه فلا تحتاج إلى أدلة أخرى تعضدها، يقول السيد رشيد رضا: (فهي إنها باعجازها البشر، وبقرنها المسائل الاعتقادية فيها ببراهينها، والاحكام الادبية والعملية بوجود منافعها، لا يحتاج إلى دليل آخر يدل على أنها هداية من الله تعالى وأنها جديرة بالاتباع، بل هي دليل على نفسها عند صاحب الفطرة السليمة، كالنور يظهر الاشياء وهو ظاهر بنفسه لا يحتاج إلى شيء آخر يظهره)[7].

---

(١) البقرة: ٩٩.

(٢) البقرة: ١١٨.

(٣) النور: ٣٤ و ٤٦.

(٤) الكشاف للزمخشري: ١/ ٣٣٦.

(٥) المصدر نفسه: ٣/ ٦١٥.

(٦) التفسير الكبير للرازي: ٢٣/ ٢٢٢.

(٧) تفسير المنار: ١/ ٣٩٥.

بل هذه هي أحدى غاياته الكبرى: الايضاح والكشف عما تحتاجه البشرية في حياتها فكيف يوصف بعد ذلك بغموض أو اغلاق ؟، وهذه مهمة اساسية اشار إليها القرآن فقال ﷻ: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم...﴾[1]، وقال ﷻ أيضاً: ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم...﴾[2].

أي ما أنزلنا عليك القرآن إلا لتبين لهم بواسطة بيانات هذا القرآن الاشياء التي اختلفوا فيها، والمختلفون: هم أهل الملل والاهواء)[3]. وهكذا اعلنها القرآن مراراً وتكراراً أنه واضح مكشوف بل أنه نعى على أولئك الذين يخفون شيئاً من هذا البيان الواضح فقال محذراً ومتوعداً: ﴿أن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في هذا الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾[4].

ومن تأكيده على هذه الحقيقة أنه كان كثيراً ما يعقب بها بعد ذكره لأحكام وقضايا مختلفة ليكرسها في الاذهان كقوله ﷻ: ﴿أنظر كيف نبين لهم الآيات ثم أنظر أنى يؤفكون﴾[5]،

وكقوله ﷻ: ﴿ولنبينه لقوم يعلمون﴾[6]

---

(١) النحل: ٤٤.

(٢) النحل: ٦٤.

(٣) تفسير الرازي: ٢٠/ ٦٢.

(٤) البقرة: ١٥٩.

(٥) المائدة: ٧٥.

(٦) الانعام: ١٠٥.

وكقوله ﷻ: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾(١) في ثمانية عشر موضعاً من القرآن بل أنه لا نسبة بينه وبين غيره من كلام البشر فأنه واضح الدلالة، قوي الحجة، ساطع البيان،

وصدق الله إذ ﷻ: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا﴾(٢) أي أحسن بياناً كما قال مجاهد أو أحسن تفصيلاً كما قال ابن عباس لأن كلمة التفسير إنما تعني: (بيان الشيء وايضاحه من فسرت الشيء وفسرته) وعلى هذا المعنى ذهب بعض المفسرين في تأويل قوله تعالى عن القرآن: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾(٣) أي بيناه تبيناً، أو فصلناه تفصيلاً، وقال أبن الاعرابي ما اعلم الترتيل إلا لتحقيق والتبيين(٤).

ولذلك سماه الله في مواطن كثيرة بأنه بصائر كما جاء في قوله ﷻ: ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم...﴾(٥) والبصائر جمع بصيرة، وهي لأدراك العقل كالبصير لإدراك الحس، فتطلق على المعرفة اليقينية وعلى الحجة العقلية والعلمية، ويؤيد هذا كل ما ورد في القرآن من الاعتماد على الآيات والبراهين ومخاطبة العقل، وكان أصحاب الأديان المحرفة والاديان المبتدعة يعدوا عن العقل والعلم، واعتمدوا في الدعوة وتلقين الدين على التسليم والتقليد الأعمى)(٦).

---

(١) الانعام: ١٠٥.

(٢) البقرة: ٢٤٢، وينظر بقية المواضع في المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم.

(٣) الفرقان: ٣٢.

(٤) ينظر فتح القدير للشوكاني: ٤/ ٧٣.

(٥) الأنعام: ١٠٤.

(٦) تفسير المنار: ٨/ ٢٧٦.

وكما أن القرآن بين في نفسه فهو مبين لغيره من المشكلات وموضح لحاجات الناس وقد وصف هذا الكتاب بهذه الصفة كما جاء بقولهﷻ: ﴿وقرآن مبين﴾[1] وقوله تعالى: ﴿بلسان عربي مبين﴾[2] يقول الزمخشري: (يريد القرآن، لكشفه ظلمات الشرك والشك، ولابانته ما كان خافياً عن الناس من الحق)[3].

إذا هكذا جاء القرآن يبين للناس ما هم محتاجون إليه بياناً ظاهراً وواضحاً وقد عبر عن ذلك بصفة تبني عن المبالغة في البيان فقال عنه: ﴿تبياناً لكل شيء . . .﴾[4] أي تبياناً بليغاً، وأنه بين كل شيء من أمور الدين[5]. وقد قرئ بالوجهين في قولهﷻ: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات مبينات. . .﴾[6] أي باسم المفعول واسم الفاعل أي بكسر الياء على معنى أنها تبين للناس[7].

وقد عبر القرآن بلفظ في موطن آخر أكثر دلالة على البيان والوضوح في آياته فقال: ﴿فقد جاءكم بينه من ربكم...﴾[8] (فتذكيرة للبينة هنا للتعظيم، اراد به والله أعلم بينة عظيمة كاملة من وجوه متعددة، إذ البينة ما تبين به الحق فهو

---

(١) الحجر: ١.

(٢) الشعراء: ١٩٥.

(٣) الكشاف: ١/ ٦٠١.

(٤) النحل: ٨٩.

(٥) ينظر الكشاف: ٢/ ٤٢٠.

(٦) النور: ٣٤.

(٧) تفسير الرازي: ٢٣/ ٢٢٢.

(٨) الانعام: ١٥٥.

مبين للحق في العقائد بالحجج والدلائل وفي الفضائل والاداب وأصول الشريعة وأمها الاحكام بما تصلح به أمور البشر بشؤون الاجتماع)[١].

وانطلاقاً من هذا البيان جاءت هدايته للناس من اوضح الهدايات، لأنه قد جاء بشكل بين لا غموض فيه يوقع الناس بشراك الاوهام والاختلاف، والتنازع بل هو البين في هدايته كما قال ﷻ: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان﴾[٢]. أي آياته واضحات مكشوفات مما يهدى إلى الحق ويفرق بين الحق والباطل، وهذا السر تجده مفهوماً في التكرار من ايراد الهدى مرتين أولاً بذكر الهدى للناس وثانياً بذكر الهدى مقروناً بالبيات يقول الرازي معللاً ذلك: (ذكر اولاً أنه هدى، ثم الهدى على قسمين تارة يكون كونه هدى للناس بيناً جلياً، وتارة لا يكون كذلك والقسم الأول لاشك أنه افضل، فكأنه قيل: هو هدى لأنه هو البين من الهدى والفارق بين الحق والباطل، فهذا من باب ما يذكر الجنس ويعطف عليه نوعه لكونه اشرف أنواعه، والتقدير كأنه قبل: هدى هدى، وهذا بين من الهدى وهذا بينات من الهدى، ولاشك أن هذا غاية المبالغات)[٣].

ثانياً: كونه مفصلاً

ويقصد بذلك: أن القرآن جاءت أحكامه مميزة بعضها عن بعض، ملخصة في معاني مختلفة، وكأنه مبوب في اغراضه المختلفة فمنها في العبادات، ومنها في المعاملات، ومنها في المواعظ ومنها في القصص....الخ.

---

(١) تفسير المنار: ٨/ ٢٠٦.

(٢) البقرة: ١٨٥.

(٣) تفسير الرازي: ٥/ ٨٦.

واشارت آيات متعددة إلى هذه الخصيصة الواضحة كقوله ﷻ: ﴿وهو الذي أنزل عليك الكتاب مفصلاً﴾(١)، كما وضعت آياته بذلك أيضاً كما في قوله ﷻ: ﴿الم كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾(٢)، وكذلك ذكرت أحكامه بأنها مفصلة كما قال ﷻ: ﴿وقد فصل لكم ما حرم عليكم...﴾(٣).

وأما المقصود بالتفصيل في الآيات السابقة فقد أوضحه المفسرون رحمهم الله قال الزمخشري: (أي فصلت كما تفصل القلائد بالغرائد من دلائل التوحيد والاحكام والمواعظ والقصص، أو جعلت فصولاً سورةً سورة وآية آية، أو فرقت في التنزيل ولم تنزل جملة واحدة، أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد: أي بين ولخص، وعن عكرمة والضحاك فصلت أي فرقت بين الحق والباطل)(٤).

إذاً فالتفصيل يتناول أموراً عدة، ويشتمل على معاني متعددة كلها تصدق على القرآن:

أ- أن آيات القرآن جعلت تفاصيل في معان مختلفة في وصف ذات الله وشرح صفات التنزيه والتقديس، وعجائب أحوال خلق السموات والأرض، وبعضها في أحوال التكاليف الشرعية، وبعضها في الوعد والوعيد، ودرجات أهل الجنة ودرجات أهل النار، وبعضها في العبادات، وبعضها في القصص والتأريخ، وبالجملة كما يقول الرازي: (أنه ليس في يد الخلق كتاب

(١) الانعام: ١١٤.

(٢) هود: ٢.

(٣) الانعام: ١١٩.

(٤) الكشاف: ٢/ ٢٥٧، وينظر تفسير الرازي: ١٧/ ١٧٨.

اجتمع فيه من العلوم المختلفة والمباحث المتباينة مثل ما في القرآن)[1]. وكما قال الشوكاني أيضاً: (مبيناً واضحاً مستوفياً لكل قضية على التفصيل)[2].

إن هذا التفصيل واضح في كتاب الله يراه القارئ وهو يقرأ هذه الموضوعات مفصلة مفروز بعضها عن بعض، يخرج سامعها بنتيجة معلومة مستقرة عنده ولا يقصد بالتفصيل التوسعة والشرح والاسهاب وانما (التفصيل عبارة عن جعل الحقائق والمسائل المراد بيانها مفصولاً بعضها عن بعض بما يزيل الاشتباه واختلاط بعضها ببعض في الافهام، وليس معناه ذكر كل نوع منها على حدته ولا التطويل ببيان جميع فروعه. ففي القرآن تفصيل كل شيء يحتاج إليه في أمر ديننا، أسهب حيث ينبغي الأسهاب، وأوجز حيث يكفي الايجاز)[3].

وهكذا نجد التفصيل فيما نحتاج إليه في كل قضية من قضايا الدنيا والآخرة، وأن هذا التفصيل أنما جاء من لدن عليم خبير يعرف ما يحتاج إليه الناس على مر العصور والظروف، فهو تفصيل لا يخطئ أبداً، وصدق الله إذ يقول: ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[4]، أي أن ذلك التفصيل إنما كان على علم تام بما في كل فصل من تلك الفصول من الفوائد والمعارف[5]، أو (عالمين كيف نفصل أحكامه ومواعظه وقصصه وسائر معانيه حتى جاء حكيماً غير ذي عوج)[6]. وهذا التفصيل كان من الرحمة الالهية لعباده فانه لم

---

(١) تفسير الرازي: ٢٧/ ٩٤.

(٢) تفسير الرازي: ٢/ ١٥٥.

(٣) تفسير المنار: ١/ ٤٤١.

(٤) الاعراف: ٥٢.

(٥) تفسير الرازي: ١٤/ ٩٤.

(٦) الكشاف: ٢/ ٨٢.

يترك عباده هملاً بدون أن يرشدهم إلى ما يهمهم وما إليه يحتاجون، وقد عبر القرآن عن هذا التفصيل المحفوف بالحكمة والعلم فقال: ﴿كتاب أُحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾[1]، يقول الزمخشري: (في الآية طباق حسن لأن المعنى أحكمها حكيم وفصلها أي بينها وشرحها خبير عالم بخفيات الأمور)[2].

وأمتد هذا التفصيل ليشمل أحوال الكافرين فيفصلها ويوضحها للمؤمنين ليكونوا على بينة من دسائس اعدائهم ومكائدهم، فهو لم يقتصر على التوضيح لطرق الخير وأنما حذر من طرق الشر، وهذا أبلغ في التفصيل. كما قال ﷻ: ﴿وكذلك نفصل الآيات ولتبين سبيل المجرمين﴾[3]، أي كما فصلنا لك دلائل التوحيد وأمور الشريف نفصل لك كل الدلائل في تقرير الحق واثباته لتكون على بينة من أحوال أهل الباطل ولتستبين طريقهم فتتعامل مع كل منهم بما يجب أن يتعاملوا به، وكل ذلك إنما جاء من التفصيل في هذا الكتاب[4].

ب- وقد يراد بالتفصيل أنه جعلت آياته فصولاً سورة فسورة وآية فآية، وهذا أيضاً من التفصيل لقارئه بحيث ميز بعضه عن بعض وجاء على شكل آيات وعلى شكل سور، وفي ذلك من الفوائد والحكم ما فيه كما ذكر ذلك العلماء وعددوا من فوائده أموراً منها:

١- التيسير على الناس في حفظه ومدارسته.

---

(١) هود: ١.

(٢) الكشاف: ٢/ ٢٥٨. وينظر تفسير الرازي: ١٧/ ١٣٨.

(٣) الانعام: ٥٥.

(٤) ينظر الكشاف: ٢/ ٢٣، وتفسير الرازي: ١٣/ ٦.

٢- الدلالة على موضوع الحديث ومحور الكلام؛ فأن في كل سورة موضوعاً بارزاً تتحدث عنه.

٣- إن الجنس إذا أنطوى تحته أنواع وأصناف كان أحسن وأفهم من أن يكون باباً واحداً.

٤- إن ذلك أنشط للقارئ، وأبعث له على التحصيل ما لو كان كتاباً واحداً يدون تفصيل

٥- إن التفصيل يحسب تلاحق الاشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاصق المعاني والنظم[١].

حـ- أو أنه فاصل بين الحق والباطل، وهذا واضح في عرضه للعقيدة الصحيحة بالبراهين والادلة، ونقض العقائد الزائفة، وتنفيذها بالدلائل أيضاً. مما جعل الخط واضحاً والطريق سالكاً إلى الحق والتحذير من الباطل. يقول الشيخ النووي (أن الفارق الاصيل والحاجز السميك الذي أقامه القرآن الكريم إلى أن تقوم الساعة بين الهداية والضلالة. وبين الأيمان والكفر، والاسلام والجاهلية، ورضا الله وغضبه وبين الظن واليقين، والحلال والحرام، فارق مميز يعجز عن نظيره تأريخ الصحف السماوية والتعاليم الدينية عبر العصور والاجيال...وصدق الله إذ يقول: ﴿لقد تبين الرشد من الغي، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى...﴾[٢]

د-أو أنه جاء ملخصاً مبيناً، وهذا ظاهر من خلال إيجازه وعدم اطنابه في شرح أمور قد تحتاج إلى شرح وتوضيح، لكنه كان يكتفي بذكر القواعد

---

(١) ينظر مناهل العرفان للزرقاني: ١/ ٣٤٤.

(٢) الآية ق سورة البقرة: ٢٥٦.

والاساسيات، والتركيز على المهمات، ليمكن حفظه واستيعابه، ولذا جاء من هذه الناحية على أبلغ اسلوب في التعبير، فهو لم يدخل قارءه في متاهات كثيرة، وذكر فروعات متعددة، يصعب بعد ذلك احتواؤه وجمع اطرافه.

هـ-ويرى الشيخ سعيد حوى وجهاً أخر للتفصيل شرحه بقوله: (ومن مظاهر التفصيل ما رايناه في هذا الكتاب، من كون كل قسم من القرآن يفصل نوع تفصيل ما أجمل في مكان آخر، وكل سورة تفصل ما أجمل في آية أو في مجموعة آيات، ومن مظاهر التفصيل البيان المفهوم لكل عربي على حسب طاقته، ووضوح المعاني ووصولها إلى القلب السليم)[1].

نعم أن هذه الوجوه تنطبق على القرآن الكريم وهي كلها أنواع للتفصيل لهذا الكتاب، ولكن قد يكون أقربها إلى المراد في الدلالة هو الوجه الاول والرابع وذلك بحسب دلالة كلمة التفصيل واستخدامها في اللغة، والله أعلم.

وهكذا يتبين لنا (أن القرآن العظيم واضح كل الوضوح محكم كل الاحكام مبين كل البيان في أصول الدين وكلياته، وفي جميع الامور التي تمس إليها حاجة الانسان في فلاح دنياه وسعادته فيها، وفي نجاته وسعادته في الآخرة، لا يحتمل القرآن في ذلك إيهاماً ولا غموضاً، ولم يدع فيه تفصيلاً ولا تفسيراً إلا أودعه فيه)[2].

فليس في القرآن أسرار غامضة عن أهل العلم، ولا مواطن خفية لا يصلها إلا فئة معينة متميزة عن البشر يفهمون وحدهم دون غيرهم، فليس ككتب

---

(١) الاساس في التفسير لسعيد حوى: ٥/ ٢٥٣١.

(٢) ينظر المدخل إلى الدراسات القرآنية: ١٨-١٩، وينظر الخصائص العامة في الإسلام للقرضاوي: ٧٧.

الفلاسفة التي تجنح إلى الالغاز والتعقيد، وليس كالادب الرمزي يغلـــو في أخفـــاء الدلالة والافهام بالرمز والاشارة البعيدة حتى يكون عسير الفهم صعـــــب الادراك على العقل العادي[1].

والحمد لله رب العالمين الذي خص هذا الكتاب بهذه الخصيصة.

المحكم والمتشابه:

وربما يبرز سؤال ويطرحه الكثير ومفاده كيف نوفق بين سمة القرآن هـــذه من التفصيل والتبيين مع وجود آيات متشابهات فيه؟

وقبل أن نبين طريقة التوفيق بين هذه النصوص نذكر ما ورد في القرآن مـن ذكر وجود المتشابهات، وبيان معناها، ثم نبين الحكمة في ايرادها.

ونقول لقد ورد مصطلح التشابه في القرآن وجاء على عدة معان منها مـــا هو وصف للقرآن ككل وجاء في معرض الثناء والمدح له وهو ما جاء بقولـــهﷻ: ﴿الله أنـزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني...﴾[2] وهذا التشابه إنما المقصـــود به: (أنه متشابه في معانيه في الصحة والاحكام، والبناء على الحق والصدق ومنفعـــة الخلق، وتناسب الفاظه وتناصفها في التخير والإصابة، وتجاوب نظمـــه وتأليفـــه في الاعجاز و (التبكيت)[3]، وهذا ليس كلامنا فيه فهو أمـــر محمـــود يزيـــد هـــذا الكتاب عظمة.

ووردت كلمة المتشابهات في نص أخر بمعنى أخر ينصب حديثنا حوله وهـــو ما ورد بقوله تعالى: ﴿هو الذي أنـزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب

---

(١) ينظر: كيف نتعامل مع القرآن العظيم للقرضاوي: ٣٧و ٣٨.

(٢) الزمر: ٢٣.

(٣) ينظر الكشاف: ٣/ ٣٩٥، وتفسير الرازي: ٧/ ١٦٦، وفتح القدير: ١/ ٣١٧.

وآخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، وما يذكر إلا أولو الالباب﴾[1].

فهذه الآية نصت على أن آيات القرآن تنقسم إلى قسمين: آيات محكمات ويات متشابهات، وأن المحكمات هن أصل الكتاب وأمه ومعظمه، وهي العمدة في الفهم والاستنباط، وأن المتشابهات قد يتبعها الزائفون في الوقت الذي لا يعلم تأويلها إلا الله، وأن الراسخون يكلون علمها إلى الله ويردونها إلى المحكم[2].

لقد تحدث علماء التفسير وعلماء الكلام والعقيدة والاصول عن هذه الآية كثيراً، وكتب عنها الكثير، كما اختلفوا في تفسيرهما إلى المحكمات والمتشابهات وبيان معناهما[3]، ولسنا داخلين في هذه الاختلافات بقدر ما نأخذ القدر المشترك منها وما يتعلق بموضوعنا، لأن كثيراً من تعاريف المحكم والمتشابه لا يدخل في صلب موضوعنا، ولعل التعريف الذي ذكره الشوكاني كان أقربها إلى مرادنا وهو ما تعرض له الإمام الزركشي أيضاً، وصاغه الشوكاني بقوله: (المحكم هو الواضح المعنى الظاهر الدلالة، أما باعتبار نفسه أو باعتبار غيره، والمتشابه ما لا يتضح معناه، أو لا تظهر دلالته لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره)[4]. وضرب أمثلة للمتشابه كفواتح السور، والألفاظ الغريبة التي لا يوجد في لغة العرب ولا في عرف الشرع

---

(١) آل عمران: ٧.

(٢) ينظر الكشاف: ١/ ٤١٢.

(٣) ينظر هذه الاراء في تفسير الرازي: ٧/ ١٦٨-١٧١، والجامع لأحكام القرآن: ٤/٩، وفتح القدير: ١/ ١٤.

(٤) ينظر فتح القدير: ١/ ٣١٤، والبحر المحيط للزركشي: ١/ ٤٥١-٤٥٢، ينظر فتح القدير ٣١٧/١.

ما يوضحها، أو ما استأثر الله بعلمه كالروح والساعة. وأما ما يوجد في الكلام شيء يوضحه سواء بنفسه أو بغيره فهو محكم ويظهر من هذا ان المتشابه لا يعلم حقيقته إلا الله وأن على العلماء التسليم في ذلك والعمل بالمحكم ورد المتشابه إلى المحكم، حتى لا يخطئوا الطريق في فهمه، وقد حذر النبيﷺ من اولئك الذين يتبعون ما تشابه منه فعن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول اللهﷺ هذه الآية: هو الذي أنزل الكتاب إلى قوله أولوا الالباب قالت: قال رسول اللهﷺ فأذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم)[1].

والذي يتعلق به الكلام في هذه الموضوع مسألتان:

المسألة الأولى: هل يوجد في القرآن ما لا يفهم معناه أو كيف يخاطب الله قوماً بكتاب لا يفهمون معناه ومقاصده؟ والجواب عن ذلك:

إن الذي تحصل لنا من خلال ما طرحه العلماء أن آيات القرآن الكريم إنما يمكن فهم معناها والتوصل إلى دلالتها سواء عن طريق فهم اللغة أو عن طريق استنباط العلماء وفهمهم لذلك إلا أنه تبقى أمور لا يمكن الاحاطة بها والوقوف على حقيقتها المرادة، كالذي يتعلق بالامور الغيبية وذكر أحوال الاخرة، وكآيات الصفات وما أشبه ذلك فأنه لا يمكن معرفة حقيقتها، وأنما يعرف ظاهرها.

وقدم جاء الذم لمن يتبع المتشابه ويثير بذلك الشبهات لا من يبحث عن معناها ويريد أن يعرف دلالتها الظاهرة. ولذلك فأن من يرد المتشابه إلى المحكم فقد سلم ولم يزغ عن الحق[2].

---

(١) صحيح البخاري: ٨/ ١٦٨ بهامش فتح الباري.

(٢) ينظر تفسير المنار: ٣/ ١٦٧، و١٧٢، والبحر المحيط: ١/ ٤٥٦.

ورغم أن الكثير من العلماء ذكر أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل هذه المتشابهات ورأوا أن الوقف التام هو على قولهﷻ: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ ولكن ذلك لا يعني أن في القرآن كلاماً لا يفهم معناه، ولكنه أن اشتبه على قوم فقد يعلمه ناس آخرون، ولا يمكن أن يكون الرسولﷺ وجميع الأمة لا يفهمون معناه وقد رأى هولاء وعلى مقدمتهم ابن تيميه أن جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره، وأن الراسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابه، وينقل عن ابن عباس ﷺ قوله أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله، ولذلك خص القرآن الراسخين في العلم، ولو كان مجرد الوصف بالايمان لم يخصهم بذلك، فهو إشارة إلى أنهم يعلمون تأويله، وأما الذم فإنما ورد على من يتبع المتشابه لابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

ولذلك فسر السلف جميع القرآن، وكلامهم شامل للجميع إلا ما يشكل على بعضهم فيتوقف فيه، ثم أن الله أمر بتدبر القرآن مطلقاً وهو شامل للمتشابه وغيره، والمقصود من الكلام الافهام والا كان لغواً وباطلاً، وقد قال الحسن رحمه الله: (ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيماذا أنزلت وماذا عنى بها نعم إن الله استأثر بعلم بعض الأمور وحقيقتها.

ويشدد ابن تيميه النكير على من لا يرى ذلك ويقول: أن من قال أن من القرآن كلاماً لا يفهم أحد معناه ولا يعرف معناه إلا الله فأنه مخالف لأجماع الأمة مع مخالفته للكتاب والسنة[1].

المسألة الثانية: ما الحكمة في ايراد المتشابهات؟ ولم لم يكن كله محكماً؟

---

(١) ينظر كلام ابن تيميه في تفسير المنار: ٣/ ١٧٢-١٩٤، وينظر الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ١٨، وفواتح الرحموت: ٢/ ١٧-١٨.

لقد ذكر العلماء رحمهم الله وجوهاً كثيرة للحكمة من ايراد المتشابهات نذكر أهمها منها:

١- لو كان كله محكماً لتعلق الناس به لسهولة مأخذه، ولاعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأويل من النظر والاستدلال.

٢- في المتشابه ابتلاء وامتحان، وتميز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، وأمور الدين كلها ابتلاءات واختيارات.

٣- فيه زيادة معتقد المؤمن وقوة يقينه إذا درس المتشابهات وردها إلى المحكمات، وعلم أن لا مناقضة في كلام أمة ولا اختلاف فيه[١].

وهناك وجوه كثيرة تركتها خوف الاطالة ولا تعد وأن تكون تكراراً لبعضها. وعلى أية حال فالله فاعل مختار يفعل ويحكم ما يشاء، وقد يختار لعباده أن يكون كتابه شاملاً للصنفين. على أن ذلك لم يمنع العلماء من النظر والاستدلال والترجيح والتأويل ضمن الضوابط العلمية والاصولية.

فما من قضية الا وحاولوا علاجها ومعرفة المراد منها، ولهم فيها أقوال كثيرة فقضية فواتح السور التي يراها الكثيرون انها من المتشابه، فقد خاض العلماء في تفسيرها وبين المراد إلى أقوال كثيرة جداً مذكورة في محالها[٢].

وكذلك مسألة الصفات التي هي اعقد من فواتح السور، والكلام فيها صعب وخطير، اليس أن العلماء قد تكلموا فيها وبيان معناها سواء كانوا من المفوضة أو المتأولة والمتأولون كما كانوا من المتأخرين كان منهم أيضاً في الصدر

---

(١) ينظر الكشاف: ١/ ٤١٤، وتفسير الرازي: ٧/ ١٧٢، والاتقان: ٢/ ٣٠، وتفسير المنار: ٣/ ١٧٠، ومناهل العرفان: ١/ ٢١٩، و٢/ ١٧٨.

(٢) ينظر الاتقان: ٣/ ٢١، ومناهل العرفان: ١/ ٢٢٢.

الاول وجيل السلف[1]، مما يدلل على أن المتشابه ليس معناها الغموض على الخلـق والايهام في اطلاقه، بل قد يصل إليه العلماء والراسخون في العلم.

أما ما نفوه أو وكلوا أمره أن الله فهو مما لا يستطيع العقل أن يصل إليـــه لكون أمر العقل محدوداً، أو أهم حاذروا من أن يتكلموا بأمور تزل فيه عقولهـم، أو لا يدركوا فيه مراد الله.

---

(١) ينظر كتاب تفسير آيات الصفات للاستاذ الدكتور محسن عبد الحميد: ١١٥ وما بعدهـا وكتابه أيضاً: نظرات في تفسير القرآن: ٤٩، وينظر الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ١٤.

المبحث الثالث: عربية القرآن

إن من خصائص هذا الكتاب أنـزاله بلغه العرب، فلم ينـزل بلغة أخرى كما أنـزلت بعض الكتب، وكان لهذه الخصيصة نتائجها وثمراتها التي سنتحدث فيما بعد.

أما أنـزاله بلغة العرب فهم أمر تقتضيه طبيعة هذه الرسالة التي أنـزلت على النبي محمدﷺ وهو من العرب، فلابد أن يكون الكتاب المرسل إليهم بلغة يفهمونها، ويعرفون كيف يستوعبونها.

وهذا ما اشارت إليه الحقيقة العامة التي تقتضي أن يخاطب كل قوم بما يفهمون، والواردة بقولهﷻ: ﴿وما ارسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم...﴾[1] والمقصود من اللسان هنا هو اللغة[2]، أي وما أرسلنا في الأمم الخالية قبلك من رسول إلا بلسان قومه أي متكلماً بلغة من ارسل إليهم، أو بلغة قومه الذين هو منهم وبعث فيهم[3].

وقد بين القرآن الحكمة من ذلك بقوله: (ليبين لهم)، أي (ليفهموا عنه ما يدعوهم إليه فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولوا لم نفهم ما خوطبنا به)[4]. فإنه إن كان بلغتهم سهل عليهم تلقيه وامتثاله من غير حاجة إلى ترجمة، بخلاف

(١) سورة ابراهيم:٣.

(٢) ينظر الكشاف: ٣: ٤٢٩. والجامع لأحكام القرآن: ٩/ ٣٤٠.

(٣) ينظر روح المعاني للالوسي: ١٣/ ١٨٤.

(٤) الكشاف: ٢/ ٣٦٦.

ما لو كان بغير لسانهم[1]، وكان فهمهم لأسرار تلك الشريعة وقوفهم على حقائقها أسهل، وعن الغلط والخطأ ابعد[2].

وقد أمتن الله على رسوله بهـذه النعمـة أيضـاً فقـال: ﴿فإنما يسرناه بلسانك﴾[3] أي أنـزلناه بلغتك وهو اللسان العربي المبين وسهلناه وفصلناه[4].

ولهذا لم يجد النبيﷺ صعوبة في تلقيه وفهمه، وكذلك من سمعه من العـرب، فلم يستغربوا اسلوبه، ولم يستغلق عليهم فهم خطاباته، بل عقلوه وفهموا مقـاصده ومراميه، ماعدا الفاظ أو جمل اصطلح عليها القرآن واستخدمها في معان جديـدة ربما سألوا عنها[5].

ورغم أن القرآن توجه خطابه إلى البشر جميعاً بحكم عموم رسالة النـبيﷺ إلى الخلق جميعاً، فأن القرآن قد نـزل بلغة واحدة وهي لغة العرب ولم ينـزل بكل اللغات وذلك لو تعدد نظم الكتاب لكان أدعى إلى التنازع واختلاف الكلمـة، ثم يتطرق إليه أمر التحريف أو التبديل بسهولة، فيكفي أن ينـزل بلسـان واحـد، ولابد أن يكون بلسان القوم الذين أرسل إليهم، ثم يقوم القوم بذلـك فيفـهموا الناس به ويبينوه لهم فتقوم الحجة عليهم ببيانه وتفهيمه[6].

---

(١) ينظر الكشاف: ٢/ ٣٦٧، وفتح القدير: ٢/٩٠، وروح المعاني: ١٣/ ١٨٥.

(٢) ينظر تفسير الرازي: ١٩/ ٨٠.

(٣) مريم: ٩٧، والدخان: ٥٨.

(٤) الكشاف: ٣/ ٥٢٧.

(٥) ينظر تطور التفسير للاستاذ محسن عبد الحميد: ١٧-٢٠.

(٦) ينظر الكشاف: ٢/ ٣٦٦، وفتح القدير: ٢/ ٩٤، وروح المعاني: ١٣/ ١٨٥، وفي ظلال القرآن: ٥/ ٨.

لقد أكدت عربية القرآن في آيات عديدة، وأن أيحاءه كان باللسان العربي، كما بينت الحكمة من ذلك والغاية في عشر آيات تؤكد ذلك وتقرره.

فقد جاء وصفه بأنه لسان عربي كما قال ﷻ: ﴿وهذا لسان عربي مبين﴾[1]،

وقوله تعالى: ﴿نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾[2].

وهو كما يدل على عربيته يدل على فصاحة اسلوبه وبيانه الواضح فالمقصود (ذو بيان وفصاحة) وقد أنزله عربياً كما قال ﷻ: ﴿أنا أنزلناه قرآناً عربياً﴾[3] أو جعله عربياً كما ورد في قوله: ﴿أنا جعلناه قرآناً عربياً﴾[4].

وأما الغاية من ذلك فقد اشارت إليه بعض الآيات كقوله تعالى ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[5]، أي ارادة أن تفهموه وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم[6]، أو ليتمكنوا من فهمه ويقدروا على تحصيل المعرفة به، ويكونون بفهمه من العقلاء حقاً[7].

---

(١) النحل: ١٠٣.

(٢) الشعراء: ١٩٣-١٩٥. الكشاف: ٣/٤٢٩.

(٣) يوسف: ٢.

(٤) الزخرف: ٣.

(٥) يوسف: ٢.

(٦) الكشاف: ٢/ ٣٠٠.

(٧) ينظر تفسير الرازي: ١٨/ ٨٢، وفتح القدير: ٢/ ٤، والاساس في التفسير: ٥/ ٢٦٢٩.

ومنها ما ذكر لغاية أخرى تقاربها كقولــهﷻ: ﴿كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾[1] أي لقوم عرب يعلمون ما نــزل عليهم من الآيات المفصلــة بلسانهم العربي المبين لا يلتبس عليهم منه شيء[2].

ولو نــزل عليهم بلغة أخرى لم تحصل هذه الثمرات مـــن هـــذا الفـــهم والاستيعاب، ولاعترض ايضاً على ذلك العرب كما حكى القرآن عنـــهم ذلـــك فقال: ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ءاعجمي وعربي﴾[3] لأنهـــم لا يفهمون لغة العجم فتحتاجون إلى أن ينـــزل بلغتهم لكي يفهموه[4].

وهذا الانـــزال بلغتهم يؤكده المعنى المفهوم من قوله تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾[5]، فقال المفسرون: إن تنـــزيله بالعربية الـــتي هي لسان النبيﷺ ولسان قومه إنما هو تنـــزيل على قلب النـــبيﷺ لأنـــه يفهمـــه ويفهمه قومه، ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعه دون قلبه، لأنه يسمع أصواتـاً لا يفهم معانيها[6]، بل أن القرآن لم يقتصر على أدائه بالألفاظ العربية، وأنما تجاوزها إلى المعاني العربية فيقول تعالى: ﴿وكذلك أنـزلناه حكماً عربياً﴾[7] أي حكمة عربيـــة

---

(١) فصلت: ٢.

(٢) ينظر الكشاف: ٣/ ٤٤٧.

(٣) فصلت: ٤٤.

(٤) ينظر الكشاف: ٣/ ١٢٨.

(٥) الشعراء: ١٩٣-١٩٥.

(٦) ينظر الكشاف: ٣/ ١٢٨، وتفسير الرازي: ٢٤/ ١٦٨، وفتح القدير: ٤/ ١١٧.

(٧) الرعد: ٣٧.

مترجمة بلسان العرب[1]، أو قد يراد بها الاحكام جاءت بلغة العرب، لأن الحكم لا يمكن إلا بالقرآن، والقرآن عربي[2].

وقد يقال لماذا يمتن الله على عباده أنه قد أنزله بلغة العرب؟ ألا يمكن أنزاله بلغة أخرى؟

فيقال: أما ما كان من امتنانه على العرب خاصة فهو لما اراد سبحانه من تشريف للعرب والعربية، فتخصيصه للغة كتابه بالعربية إنما هو فضل على العرب لاختيارها دون سواهم، وللغة العربية التي حفظها الله من الضياع فكان القرآن يتلى بها والى هذا المعنى اشارت الآية الكريمة: ﴿وأنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾[3] يقول القرطبي: (يعني القرآن شرف لك ولقومك من قريش؛ إذ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم، نظيره قوله تعالى: ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم...﴾[4] أي شرفكم فالقرآن نزل بلسان قريش واياهم خاطب، فاحتاج أهل اللغات كلها إلى لسانهم كل من آمن بذلك فصاروا عيالاً عليهم؛ لأن أهل كل لغة احتاجوا إلى أن يأخذوه من لغتهم حتى يقفوا على المعنى الذي عني به من الأمر والنهي، وجميع ما فيه من الانبياء، فشرفوا بذلك على سائر أهل اللغات ولذلك سمي عربياً)[5].

---

(١) ينظر الكشاف: ٢/ ٣٦٣، تفسير الرازي: ١٩/ ٦١، وفتح القدير: ٢/ ٨٧.

(٢) ينظر تفسير الرازي: ١٩/ ٦١.

(٣) الزخرف: ٤٤.

(٤) الانبياء: ١٠.

(٥) الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٩٣، وينظر أيضاً: ١١/ ٢٧٣.

فالمنّة على العرب واضحة لما في ذلم من تشريف للعرب والعربية[1]، فهو الذي كان الدافع الرئيسي لجمع اللغة وحفظ تراثها، وهو السبب الكبير في نشأة كثير من العلوم الإسلامية ووراء الازدهار الحضاري والتقدم العلمي، فحفظ الله كتابه الكريم، وحفظت بذلك اللغة العربية، ولا زالت العلوم الإسلامية والآداب تتقدم بفضل الحفاظ على اللغة ووجودها[2].

وأما المنة على البشر جميعاً بانزال القرآن عربياً، فهو ما يوجد في اللسان العربي واللغة العربية من خصائص لا تكاد توجد في لغة أخرى، يقول الرازي: (فاللسان العربي مختص بأنواع من الفصاحة والجزالة لا توجد في سائر الالسنة)[3]. والناظر في اللغة العربية وخصائصها يجد أنها أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني فهي اشرف اللغات كما أن القرآن اشرف الكتب[4].

فقد اختص الله العرب من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم، واوتوا من ذراية اللسان ما لم يؤت إنسان، ومن فضل الخطاب ما يقيد الالباب، وجعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقه وفيهم غريزة وقوة[5]، وغير ذلك من فنون القول وجزالة التعيين هذه المميزات مجتمعة في اللغة العربية أهلتها لأن تكون هي الرائدة بين اللغات والتي تستطيع أن تستوعب المعاني الالهية عن طريق التفنن في اداء المعاني والاشارة إلى خزائن المعلومات، والتي تقصر لغات أخرى عن تحملها[6].

---

(١) ينظر الاساس في التفسير: ٥/ ٢٦٢٨.

(٢) ينظر لغة القرآن لعبد الجليل عبد الرحيم: ٥٨٩.

(٣) تفسيره: ١٦/ ١٦٥.

(٤) ينظر الاساس في التفسير: ٥/ ٢٦٢٨.

(٥) ينظر المعجزة الكبرى لأبي زهرة: ٦٥.

(٦) المصدر نفسه: ٦٣.

وصدق الإمام الشافعي رحمه الله إذ يقول: (لسان العرب أوسع الالسنة مذهباً وأكثرها الفاظاً، لا نعلم أن يحيط بجميع علمه انسان غير نبي)[1] وأكد هذا المعنى الإمام الزركشي حينما قال: (وكان اللسان العربي أحق من كل لسان، لأنه اوسع وأفصح ولأنه لسان أولى بالمخاطبين)[2].

ويترتب على عربية القرآن أمور ينبغي أن نتحدث عنها فهي وثيقة الصلة بهذه الخصيصة وهي الأمور الآتية:

أولاً: هل يوجد في القرآن الفاظ غير عربية؟

كما تحدثنا قبل قليل أن القرآن عربي نزل بلغة العرب، ولكن بعض العلماء اشاروا إلى وجود الفاظ غير عربية في القرآن وردت عن بعض الصحابة والتابعين والف فيها كتب مستقلة فهل يتعارض هذا القول مع عربية القرآن؟ أو أنه لا وجود لالفاظ أعجمية في القرآن؟

فالذي ذهب إليه الكثير من المحققين من العلماء والفقهاء وعلماء اللغة أنكار وجود الفاظ غير عربية، ذهب إلى ذلك الإمام الشافعي وابن جرير الطبري وأبو عبيد وابن فارس وغيره ويؤلون كل ما ورد من الفاظ يشتبه أنها أعجمية.

وكان الإمام الشافعي اشدهم في ذلك أنكاراً وأولهم ذكراً لهذه المسألة فقال: (إن على العالم أن يعلم أنه لا يوجد ففي القرآن شيء غير عربي، وأن لسان العرب أوسع الالسن مذهباً وأكثرها الفاظاً، وأن من لا يفهم كل ما ورد عن العرب يفوته اشياء منها، وأن ما يوجد من غير العرب ينطق بالشيء من لسان العرب فهو مما يحتمل تعلمه منهم، أو أن هناك توافقاً بين لسان العرب ولسان

(١) أحكام القرآن للشافعي: ٣٤.

(٢) البحر المحيط للزركشي: ١/ ٤٤٥.

غيرهم، لأن الله نفى عنه كل لسان غير لسان العرب)[١] وأكد هذا الاتجاه الإمام الطبري معللاً وجود بعض الألفاظ التي تستعمل في لغة أخرى أن يكون هذا الكلام مما يتفق فيه الفاظ جميع أجناس الامم المختلفة الالسن، وأن هذه الألفاظ وقعت إلى سائر أجناس الأمم فنطقت كل أمة منها ببعض ذلك بالسنتها[٢].

ولا يعكر صفو هذه الحقيقة وجود علماء مالوا إلى اثبات الفاظ أعجمية في القرآن. ذلك أن القول بوجود الفاظ غير عربية لا يخرجه عن عربيته، لأن هذه الألفاظ استعملتها أمم أخرى، فاخذتها العرب وعربتها بالسنتها، وحولتها من الفاظها الاعجمية إلى الفاظها فصارت عربية، فجرت عندهم مجرى العربي الفصيح، ووقع البيان بها، وهذا أمر مسلم به عند علماء اللغات أن التأثر بين اللغات أمر واقعي مشهود ويقول الإمام الشاطبي: (أن هذه الشريعة المباركة عربية لا مدخل فيها للالسن العجمية وأنه لا حاجة إلى البحث عن كون القرآن جاءت فيه الفاظ من الفاظ العجم، أو لم تجيء ما دام أن العرب قد تكلمت به وجرى في خطابها، وفهمت معناه؛ لأن العرب إذا تكلمت به صار من كلامها. ولهذا قد تغير في حروفه إذا كانت تختلف عن الحروف في المخارج والصفات، وتتصرف فيه كما تتصرف في كلامها)[٣].

---

(١) الرسالة للامام الشافعي: ٢٦، وأحكام القرآن: ٣٢.

(٢) ينظر جامع البيان لأبن جرير الطبري: ١/ ٩-١١.

(٣) ينظر المزهر في اللغة للسيوطي: ١/ ٢٦٨، والاتقان له أيضاً: ٢/ ١٠٥-١٠٨، والبرهان للزركشي: ١/ ٣٥٩. ولغة القرآن: ٤-٢.

كما يحتمل أن هذه الألفاظ القرآنية التي يظن أن اصلها ليس من لسان العرب، ولا يعرف مصدر اشتقامها لعلها من بعض ما فقد أصله وبقى الحرف وحده[1].

والدافع لانكار وجود الفاظ غير عربية هو تصادم ذلك مع اعجاز القرآن الذي هو معجزة الإسلام الخالدة (فأن الله جعله معجزة شاهدة لنبيه عليه الصلاة والسلام، ودلالة قاطعة لصدقه، ولتجدي العرب العرباء به، ويحاضر البلغاء والفصحاء والشعراء بآياته. فلو اشتمل على غير لغة العرب لم تكن له فائدة)[2].

ثانياً: عدم جواز ترجمة القرآن

لما أنزل الله هذا الكتاب بلغة العرب وبلسانهم، لذا وجب أن يبقى مقرؤا ومكتوباً بلسانهم ولغتهم، وأن ترجمة الفاظه إلى لغة أخرى لا يمكن أن تقع، وإذا وقعت فقد أحالت الفاظه وحورت مقاصده، وذهبت باعجازه.

وعلى الرغم من ضرورة تبليغ هذا الدين للبشرية جميعها وعالمية دعوته، فأنه يجب أن يحافظ على لغته التي نزل بها، وما يتطلب من واجب التبليغ يمكن الوصول إليه بطرق أخرى من ترجمة معانيه، أو ترجمة تفسيره إلى أي لغة يراد أن يصل إليها[3].

يقول الزركشي: (لا يجوز ترجمة القرآن بالفارسية وغيرها، بل يجب قراءته على هيئته التي يتعلق بها الأعجاز. لتقصير الترجمة عنه. ولتقصير غيره من الالسن

(١) الموافقات للشاطبي: ٢/ ٤٣.

(٢) البرهان: ١/ ٣٩٥.

(٣) ينظر البحر المحيط: ١/ ٤٧١، والمعجزة الكبرى: ٦١٧-٦١٩.

عن البيان الذي خص به دون سائر الالسن، قالﷻ ﴿بلسان عربي مبين﴾[1]، هـذا لو لم يكن متحدى بنظمه واسلوبه، وإذا لم تجز قراءته بالتفسير العـربي المتحـدى بنظمه فأحرى ألا تجوز بالترجمة بلسان غيره)[2].

والممنوع من الترجمة هو الترجمة الحرفية التي تراعى فيها محاكاة الأصـل في نظمه وترتيبه مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده، وهي على هـذا تقتضـي وجـود مفردات في لغة الترجمة مساوية للمفردات التي تألف منها الاصل، وثانيهما تشـابه اللغتين في الضمائر المستترة والروابط التي تربط المفردات. فـأن تخلـف أحدهمـا -وكلاهما عسير- فلا تسمى ترجمة حرفية، ولذلك عدوهـا مسـتحيلة، أو أنهـا يكتنفها الغموض وخفاء المعنى المقصود[3].

يقول الشاطبي رحمه الله بعد أن ذكر أن للالفاظ معـاني آخـرى خادمـة للمعاني الاصلية: (فلا يمكن أن يترجم كلام من الكلام العربي بكلام العجم علـى حال فضلاً عن أن يترجم القرآن وينقل إلى اللسان غير العـربي، إلا مـع فـرض استواء اللسانين في اعتباره عيناً كما إذا استوى اللسانان في استعمال ما تقدم تمثيلـه ونحوه. فأذا ثبت ذلك في اللسان المنقول إليه مع لسان العرب أمكـن أن يـترجم أحدهما إلى الآخر واثبات مثل هذا بوجه بين عسير جداً)[4].

ثم إننا لو نظرنا إلى حقائق القرآن ومقاصده ومعانيه لعلمنا أن التعبير عنـها إنما هو بعيد المنال لأنه احتوى من المعاني المستنبطة والمعاني الثانوية ما يعجز البشـر أن يعبروا عنه، وفيه من النكات البلاغية والاعتبارات الزائدة التي يختص بها اللسـان

---

(١) الشعراء: ١٩٥.

(٢) البحر المحيط: ١/ ٦٩.

(٣) ينظر الموافقات: ٢/ ٤٥، ومناهل العرفان: ٢/ ٦-٨.

(٤) الموافقات: ٢/ ٤٥.

العربي من فصاحة مفردات التي هي مناط بلاغة الكلام والمتكلم ما يعجز الانســـان أن يحاكيه وأن يأتي بمثله. اضافة إلى أن القرآن آية معجزة وخارقة في أن يأتي البشــر بمثلها، فأذا ترجم القرآن كان هذا مثلاً للقرآن. فلم يكن القرآن معجزاً بل هــو في مقدور البشر فيبطل اعجازه كما أن القرآن متعبد بتلاوته، فلا يمكن أن يتعبد بغــير لغته، لأن ترجمة القرآن غير القـــرآن، والتعبـــد أنمـــا هـــو في الألفـــاظ بعينـــها واساليبه وترتيباته[1].

ثم أن ترجمة القرآن قد تؤدي إلى محذور خطير وهـــو عـــدم حفظـــه مـــن التحريف والتبديل، بل يعتريه ما اعترى التوراة والانجيل من تحريف والسبب هـــو ترجمتهما من العبرية ولذلك أجمع الفقهاء أو كادوا يجمعون على عدم جواز قـــراءة القرآن بغير العربية في الصلاة وفي غيرها، وأن من صلى بغير العربية فصلاته باطلة.

وأما ما نقل عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله من تجويزه للصلاة بالفارســـــية. فالمحققون من اتباعه اثبتوا رجوعه عن هذا القول إلى رأى الجمهور. كما أنه ليـــس معناه أن ابا حنيفة يجيز القراءة بالمعنى بحال[2].

ثالثاً: أن تفسير القرآن يكون على حسب قواعد اللغة العربية

إن من لوازم كون القرآن عربياً أن يكون الطريق إلى فهمه على حســـب ما تواضعته العرب في كلامها، واستعملته في خطابها، فأن فهم القرآن إنمـــا يكـــون وفق معرفة العرب لهذه اللغة. فيجب فهمه في حدود لغتها واساليبها المعهودة لهـــا. ولا يجوز تفسيره بمعان مستجدة حدثت بعد التنـــزيل، ومن فسره بها فقد زعـــم أن

---

(١) ينظر مناهل العرفان: ٢/ ٤١. والمعجزة الكبرى: ٦١٦.

(٢) ينظر البرهان: ١/ ٣٦٠، ومناهل العرفان: ٢/ ٥٦، والمعجزة الكـــبرى: ٦١٣، ولغـــة القرآن: ٥٥٣.

القرآن قد خاطب العرب بما لم يفهموه ولم يعرفوه لأن الله قـال: ﴿أنـا أنـزلناه قرآنـاً عربياً﴾[1][2].

فمعرفة اللغة العربية والاحاطة بها شرط اساس لمن يريد أن يفسر كلام الله، وإلا فقد أخطأ من الفهم، ولذا أدرك هـذا الامـر كبـار الصحابـة والتـابعين ومن بعدهم.

فقد ورد عن سيدنا عمر ﷺ أنه كان يوصي ويقول: (عليكم بديوانكـم: شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم)[3]، وكان المفسـر التـابعي مجاهد رحمه الله يقول: (لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتـاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب)[4] وحذر الإمام مالك رحمه الله من ترك هذا الشـرط فقال: (لا أوتي برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً)[5].

وقد كان ابن عباس ﷺ المعروف بقدرته الفائقة علـى تفسـير القـرآن يستعين كثيراً باللغة وشعر العرب في تفسيره للقرآن والمحفوظ عنه في ذلك كثـير جداً وهو القائل: إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر)[6].

إن الفهم الصحيح والسليم للقرآن هو تفهمه من جهة لسان العرب وهـذا يستدعي تعلم اللغة، يقول الشافعي رحمه الله: (فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسـان

(١) الآية من سورة يوسف: ٢١.

(٢) ينظر لغة القرآن: ٤٤٦.

(٣) ينظر هذه الاقوال في البرهان: ١/ ٣٦٨، والاتقان: ٤/ ٣٦٨، والموافقات: ٤/ ٥٨.

(٤) ينظر هذه الاقوال في البرهان: ١/ ٣٦٨، والاتقان: ٤/ ٣٦٨، والموافقات: ٤/ ٥٨.

(٥) ينظر هذه الاقوال في البرهان: ١/ ٣٦٨، والاتقان: ٤/ ٣٦٨، والموافقات: ٤/ ٥٨.

(٦) ينظر البرهان: ١/ ٣٦٨، والجامع لأحكام القرآن: ١/ ٢٤.

العرب ما بلغه جهده)[1]، وأكد ضرورة اللغة في الفهم كبار المفسرين العلماء، فقال الطبري عن تفسيره: (ويكون ذلك عن طريق معرفة وضع اللغة التي نزل بها الخطاب، وأن يكون تفهمه من جهة لسان العرب الذين نزل القرآن بلغتهم)[2].

فلذلك وجب على المفسران يراعي ما كان عند العرب من مسائل بيانيه، ونوازع بلاغية، وتفنن في استعمال الحقيقة أو المجاز أو التشبيه أو الاستعارة مما يتذوقه البلغاء ويعرفه الفصحاء[3].

وكل منهم يحصل على خلاف قواعد العرب في كلامهم فهو مرفوض، ولا يمكن أن يصل إلى معرفة معناه المراد يقول الشاطبي: (أن كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي فليس في علوم القرآن في شيء مما يستفاد منه ولا مما يستفاد به)[4].

ولذا حذر العلماء من حمل معاني القرآن عن غير طريق الفهم اللغوي بها، وذلك كالوجوه التي يذكرها أهل الباطن ويدعون أنها مرادة لله مما لا تعرفه العرب في كلامها ولم يصطلحوا عليه في مخاطباتهم فهو أمر باطل قطعاً مردود على صاحبه، وأن الغلط وسوء الفهم سيقع حتماً لكل من لم يسلك هذا الطريق[5]. كما هو شأن الفرق الباطنية والحركات الهدامة التي اساءت تفسير القرآن بتأويلها المنحرف وأدعائها معان لم تعرف عن طريق اللغة.

---

(١) الرسالة: ٤٨.

(٢) جامع البيان: ١/ ١٢.

(٣) المزهر: ١/ ٣٣١.

(٤) الموافقات: ٣/ ٣٩١.

(٥) ينظر تفسير الرازي: ٢٧/ ٩٥، وتفسير التحرير والتنوير: ١/ ١٦.

ولعل هذا أحد الدوافع التي دفعت القائلين على التأكيد على عربية القرآن كالإمام الشافعي وغيره يقول أبو زهرة عن بحث الشافعي عن عربية القرآن: (بـــل يقصد بهذا البحث أن يكون مقدمة نتيجتها التنبيه إلى أن استنباط الاحكـــام مـــن القرآن يجب أن يكون قائماً على تفهم أساليب العرب)[1] ومن قبله اشار الشـــاطبي أيضاً فقال: (بل بمعنى أنه في الفاظه ومعانيه واساليبه عربي، بحيث إذا حقـــق هـــذا التحقيق سلل به في الاستنباط منه والاستدلال به مسلك كلام العـــرب في تقريـــر معانيها ومنازعها في أنواع مخاطبتها خاصة)[2].

---

(١) الإمام الشافعي لأبي زهرة: ١٩٧.

(٢) الموافقات: ١/١٨.

المبحث الرابع: شموليته لنواحي الحياة كافة

القرآن الكريم هو الرسالة الالهية الاخيرة للبشرية، فـــلا رســـالة بعدهـــا، ولا كتاب ينسخ هذا الكتاب، ولما كان الدين منهجاً للبشرية فيما تحتاجه من أمــور حياتها وآخرتها، فقد جاء هذا القرآن ملبياً لكل تلك الحاجات مشتملاً على كافـــة التوجيهات.

لقد كانت هذه السمة والخصيصة بارزة في هذا الكتاب فاحتواؤه على كل مطالب الانسانية الروحية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والاداريـــة والاخلاقية واضح، وكذلك ما يتصل بعالم الاخرة والبعث والحشر، وما يهمـــــه في أمر العقيدة والتوحيد[(١)].

لقد سجل القرآن هذه الشمولية في عدد من آياته الكريمة، مبرز فيها عمـــا سواه من الكتب الاخرى وإليك بعض هذه النصوص:

منها قوله تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾[(٢)].

ومنها قوله تعالى: ﴿ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[(٣)].

ومنها قوله تعالى: ﴿نزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء...﴾[(٤)].

---

(١) ينظر اظهار الحق لرحمة الله الهندي: ٢/ ٥٠.

(٢) من سورة الانعام: ٣٨.

(٣) يوسف: ١١١.

(٤) النحل: ٨٩.

فهذه الآيات قد نصت بوضوح على شمولية أحكام هذا الكتاب وتلبيته لما تحتاجه البشرية.

فالاية الأولى قد ذكرت أن هذا الكتاب لم يفرط فيه بشيء، والتفريط في الامر: التقصير فيه وتضيعه حتى يفوت، ويقال فرط فلاناً إذا تركه وتقدمه[1].

أي ما تركنا في الكتاب ولا اغفلنا شيئاً لم تثبته فيه تقصيراً وأهمالاً إلا وقد بيناه فيه[2].

والكتاب هنا هو القرآن على ما رجحه الإمام الرازي لأنه المعهود. وأن ذهب بعض المفسرين إلى خلاف هذا وقال بأنه اللوح المحفوظ[3].

وأما الايتان بعدها فهما تشيران إلى أن هذا الكتاب قد فصل كل شيء كما أنه قد بين كل شيء وقد تكلمنا في المباحث السابقة بشيء من التفصيل عنهما. وملخص ما قلناه أن القرآن كان واضحاً في أحكامه مميزاً بعضها عن بعض مفسراً لا غموض فيه، قد تناول المسائل بالتفصيل والبيان والشرح.

ونقف هنا عند قوله (كل شيء) في الآيتين فهي تشير بوضوح أن هذا التفصيل والبيان استتبع أن يكون متناولاً لكل قضايا الانسان التي يحتاجها في حيات الدنيوية والاخروية، وهذا التقسيم هو نهاية المبالغة في أنه تعالى ما ترك شيئاً مما يحتاجه المكلف إلى معرفته إلا أودعه في هذا الكتاب[4].

---

(١) ينظر معجم مقاييس اللغة: ٨٦٢.

(٢) ينظر تفسير المنار: ٧/ ٣٩٥، وفتح القدير: ٢/ ١١٤.

(٣) ينظر تفسير الرازي: ١٢/ ٢١٥.

(٤) المصدر نفسه: ١٢/ ٢١٨.

وقد أوضح المفسرون ما هو المقصود بهذا التعميم مع أن كلمات القرآن محدودة والفاظه معلومة. فقالوا: أن المقصود أنه بين كل شيء من أمور الدين حيث كان نصاً على بعضها، وأحالة على السنة في البعض الآخر وحثاً على الاجماع والارشاد إلى القياس والاجتهاد فهذه الأمور مجتمعة كان فيها التبيان لكل شيء، فالاصل والقانون هو الكتاب(١).

فكلمة كل للاستقراق أي أن في القرآن تبين كل شيء من أمور الدين والدنيا، نعم قد يخصص هذا العموم والاستقراق بما كان للناس فيه فائدة ومصلحة(٢).

وليس بالضرورة أن يكون هذا التعميم على وجه التفصيل وذكر الجزئيات بل يكفي فيه ذكر الكليات يقول ابن عاشور: (هذا وقد جمع القرآن جميع الاحكام جمعاً كلياً في الغالب وجزئياً في المهم) فقوله ﷻ: ﴿تبياناً لكل شيء﴾

وقوله ﷻ: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾(٣) المراد بهما أكمال الكليات التي منها الأمر بالاستنباط والقياس؛ لأنه على اختصاره جامع والشريعة تمت بتمامه، ولا يكون جامعاً لتمام الدين إلا والمجموع فيه أمور كلية)(٤).

ولذا كان العالم بالقرآن عالم بجميع علوم الشريعة لا يعوزها منها شيء، وأن المحيط باحكامه واسراره عارف لشريعته لأنه كامل واطلق الكمال عليه

---

(١) ينظر الكشاف: ٢/ ٤٢٤، و٣٤٨، وتفسير الرازي: ١٢/ ٢١٥، وروح المعاني: ١٣/ ٧٣ و ١٤/ ٢١٥.

(٢) ينظر روح المعاني: ١٣/ ٧٤.

(٣) المائدة: من الآية: ٣.

(٤) التحرير والتنوير: ٣٥.

فالعالم به عالم بجملة الشريعة[1]. يقول أبن مسعودﷺ: (أنــزل في القرآن كل علم، وبين لنا فيه كل شيء، ولكن علمنا بقصر عما بين لنا في القرآن)[2].

ولكن لما كان كلام الله فأنه يصعب على الواحد أن يلم بمعانيه واطرافـــه، ولذا كان النبيﷺ اعرف الناس بالقرآن (وأن جميع ما حكم به فهو مما فهمـــه مـــن القرآن كما يقول الإمام الشافعي رحمه الله. الذي يؤكد دائمـــاً هـــذه الشـــمولية ويقول: (ليست تنـــزل بأحد في الدين نازلة إلا في كتاب الله الدليل علـــى ســـبيل الهدى فيها)[3].

ونكرر القول بأن المقصود من شموليته هو الاصول والقوانين ومـــا يـــؤول إليها، ولا يعني أنه قد حوى كل علم يذكر للمتقدمـــين والمتـــأخرين مـــن علـــوم الطبيعات والمنطق وعلم الحروف واشياها، ولا يمكن أن يتعرض لكــــل تفــاصيل الحياة، ولا مذاهب الناس وأنما المراد بيان الاشياء التي يجب معرفتـــها والاحاطـــة بها[4]. كما أدعى بعض الناس وغالى من أنه قد حوى كل العلوم وكل شيء حـــتى قال بعضهم: لو ضاع لي بعير لوجدته في كتاب الله.

إن الناظر والمتفحص في هذا الكتاب بعين الأنصاف والتدقيق يجده قـــد ألم بشتى مناص الحياة، وجميع متطلباها، وأودع فيه ما يهم الانسان كذلك في آخرته.

ولا تستطيع في هذا المبحث المحصور أن نعطي كشفاً مفصلاً عما حواه هـذا الكتاب. ولكن سنعطي الخطوط العريضة والقواعد الكلية التي توضح لنـــا هـــذه

---

(١) الموافقات: ٣/ ٢١٨.

(٢) ينظر الاكليل للسيوطي: ١٢.

(٣) المصدر نفسه: ١٢.

(٤) ينظر تفسير الرازي: ١٢/ ٢١٥، والموافقات: ٣/ ٢١٧.

٣٣- النبأ العظيم: د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.

٣٤- نظرات في تفسير آيات من القرآن الكريم د. محسن عبد الحميد، دار الانبار، ١٩٩٧م.

٣٥- الوحي المحمدي: السيد محمد رشيد رضا، مؤسسة عز الدين، بيروت.

الشمولية وذلك من خلال هذه المحاور الرئيسية التي يتفق الكل على الحاجة إليـــها ومعرفة موقف الدين منها:

١- ففي مجال العقيدة قد أوضح القرآن كل القضايا الكبرى الــتي كــانت تشغل الفكر الانساني وتلح عليه بالسؤال، وأجابت عــن تســاؤلاته عــن الكون والانسان والحياة وقضية النبوة والمصير إنها مع هذا كــانت عقيــدة مدللة تستخدم العقل، ولا تبتعد عن الروح. بل تجمع بينهما، وتقرب بــين المادة والروح، وليس هناك مذهب استوعب ما جاء في القرآن من قضايـــا تفصيلية عن تصور الانسان لعقيدته(١).

إن القرآن فيه علم النبوة أي علم الرسائل الالهية. وذكر كل الرســالات التي سبقته، ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة من علم النبوة إلا أحصاها.

كما تعرض لعلم الغيب، والمعجزات بشتى أنواعها، وتعرض لقضية البعــث واليوم الآخر، وعرض بالتفصيل ليوم القيامة، وما يجري فيه من حســاب ومــيزان وجنة ونار(٢).

٢- وفي مجال العبادة: قد أحكم الصلة بين الانسان وربه، واستوعبت جميع مــا يمكن أن يتقرب به الانسان إلى ربه من عبادة بدنية أو قلبية أو عقلية، فذكــر الصلاة والصيام والحج والاذكار والتفكر والخشوع، وجعل كــل عمــل

---

(١) ينظر الخصائص العامة للاسلام: ١٠٤-١٠٨، وكيف نتعامل مع القرآن: ٥٩-٦٠.

(٢) ينظر المعجزة الكبرى: ٤١٢-٤٥٤، وينظر منهج القرآن في تطوير المجتمع /محمد صــالح عطية: ٦٢-١٠٤.

يرتقي بالحياة ويسعد به الانسان كالجهاد والامر بالمعروف أو مساعدة الاخرين واعانة البشر، كل ذلك جعلها عبادة(١).

٣- وقد اشتمل القرآن على أسس الأخلاق والفضائل الإسلامية التي ترتفع بالانسان ويحتاجها كل البشر، وقد نظم القرآن علاقة الانسان مع نفسه ومع اسرته ومع أقاربه وأرحامه ومع مجتمعه، ومع كل من في هذه الحياة، فكانت الأخلاق فيه جامعة محيطة مستوعبة(٢).

٤- وأما شموليته للأحكام التكليفية والشريعة العملية، فقد نظم القرآن كل ما تحتاجه البشرية في حياتها، وأتى بنظام للعلاقات الاجتماعية والتنظيم الأنساني لم يسبقه سابق، ولم يلحق به لأحد فقد نظم تشريع العبادات وصلة الانسان بربه مما يسمى بنظام (العبادات).

كما شرع أحوال الاسرة وما يتعلق بها من زواج وطلاق ونفقة وحضانة مما يسمى (الأحوال الشخصية وشرع أيضاً نظام العلاقات المدنية والتجارية وما يتعلق به من بيع وهبة ورهن مما يسمى بالقوانين (المدنية والتجارية).

وشرع ما يتصل بالجرائم وعقوباتها المقدرة شرعاً والقصاص مما يحفظ حياة الناس وأحوالهم وحريتهم مما يسمى (التشريع الجنائي) أو (قانون العقوبات) وشرع

---

(١) ينظر الخصائص العامة: ١٠٩، وما بعدها.

(٢) ينظر المعجزة الكبرى: ٤٥٥.

له ما يتصل بعلاقة الدولة مع الفرد، أو واجب الحكومات مما يسمى (بالتشريع الدستوري) أو (الاداري)[1].

وكذلك تجاوزها إلى تشريع علاقة المسلمين مع غيرهم مما يسمى (بالقانون الدولي) وهذا قليل من كثير بل هو قطرة من بحر هذه الشريعة وشموليتها.

ومن دوافع هذه الشمولية أنطلق بعض العلماء إلى عد هذه التشريعات المختلفة هي معجزة القرآن التي دفع التحدي بها أيضاً اضافة إلى تحدية بالنظم أو الفصاحة والبلاغة وغير ذلك[2].

ونود ذكر ما رآه السيد رشيد رضا في شمولية هذه الشريعة بعد أن ذكر مقاصد القرآن في عشرة أنواع فقد قال: (ثم اضف إليها هذه العشرة الأنواع من مقاصد القرآن في اصلاح البشر، وتكميل نوع الانسان من جميع نواحي التشريع الروحي والادبي والاجتماعي والمالي والسياسي، وهي التي اشتدت حاجة الشعوب والدول في هذا العصر إليها موضحة باصول وقواعد هي أصح وأكمل وأكفل للمصالح العامة ودفع المفاسد القديمة والطارئة من كل ما سبقها من تعاليم الانبياء وفلسفة الحكماء، وقوانين الملوك والحكام على اختلاف الاعصار)[3].

---

(١) ينظر هذه الانظمة في المعجزة الكبرى: ٤٥٤-٥٥٢، والخصائص العامة للاسلام: ١١٤-١١٦ وكيف نتعامل مع القرآن: ٤٦، ومنهج القرآن في تطوير المجتمع: ١٢٨ وما بعدها. والوحي المحمدي: ١٩٣-٣٤٩.

(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٧٥، والاتقان: ٣/ ١٥، وتفسير المنار: ١/ ٢٠٦.

(٣) الوحي المحمدي لرشيد رضا: ٣٤٩، وينظر تفسير المنار: ١/ ٢٠٦.

المبحث الخامس: سلامته من التحريف والتبديل

ومن خصائص هذا الكتاب المعجز حفظه من التحريف وسلامته من التبديل سواء في عصر نزوله، أو بعد ذلك مستغرقاً جميع العصور حتى قيام الساعة.

فلا يزال نصه سليماً معافى كما نزل أول مرة، لم يزد فيه كلمة ولا حرف ولم ينقص منه شيء، ولم يطرأ عليه ما طرأ على الكتب السابقة من تحريف وتبديل شخصهما القرآن الكريم كما جاء فيه: (يحرفون الكلم عن مواضعه)[١]، وقوله ﷻ: ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾[٢]. كما اثبتت الدراسات العلمية والنقدية قديماً وحديثاً لعلماء المسلمين ولغيرهم من شتى الانتماءات إلى وجود هذا التحريف[٣].

لقد قرر القرآن الكريم حقيقة هذا الحفظ بقوله ﷻ: ﴿أنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون﴾[٤]. قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: (أكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والثبات، وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمد ﷺ، وبين يديه ومن خلفه رصد، حتى نزل وبلغ محفوظاً من الشياطين، وهو حافظه في كل وقت من كل زيادة ونقصان وتحريف وتبديل، بخلاف الكتب المتقدمة فأنه لم يتول حفظها، وإنما استحفظها الربانيين والاحبار فاختلفوا فيما بينهم بغياً فكان

---

(١) النساء: ٤٦، والمائدة: ١٣.

(٢) المائدة: ٤١.

(٣) ينظر كتاب كيف نتعامل مع القرآن العظيم: ٢٢-٢٣، حيث أورد ذكر العلماء وابحاثهم التي قاموا بها للمقارنة بين الكتب القديمة والحديثة.

(٤) الحجر: ٦.

التحريف، ولم يكل القرآن إلى غير حفظه)[1]، اشار بذلك إلى ما ورد عن بعضهم في عدم حفظ التوراة والانجيل التي نزل فيها قوله ﷻ: ﴿بِمَا استحفظوا من كتاب الله...﴾[2] فوكل الحفظ إليهم فجاز التبديل عليهم، وقال في القرآن: ﴿أنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون﴾ فلم يجز عليهم التبديل[3].

وبين الرازي كيفية هذا الحفظ في وجوه متعددة كلها واردة وصادقة على القرآن منها: أن حفظه هو جعله معجزاً مبايناً لكلام البشر فعجز الخلق من الزيادة فيه والنقصان ومنها: أن الله صانه وحفظه من أن يقدر أحد على معارضته. الله أعجز الخلق عن إبطاله وفساده، بأن قيض جماعة يحفظونه ويدرسونه ويشهرونه فيما بين الخلق إلى آخر بقاء التكليف.

ومنها: لو أن أحداً حاول تغييره بحرف أو نقصه لقال له أهل الدنيا: هذا كذب وتغيير لكلام الله[4].

وقد أكد القرآن حفظه بهذه الصيغة التي تشتمل على عدة من التأكيدات الاسلوبية على ذلك منها: أنها جاء بلفظ الجمع ومعناه أظهار التعظيم: أي نحن بعظم شأننا وعلو جنابنا نزلنا الذي انكروه وأنكروا نزوله[5].

ومنها التأكيد باحرف التأكيد (كأن) واللام المؤكدة، وتكرار (إنا) مرتين، ومجيء الخبر على صيغة اسم الفاعل الذي يدل على الثبوت والاستمرار.

---

(١) الكشاف: ٢/ ٣٨٧، وينظر تفسير الرازي: ١٩/ ١٦٠.

(٢) المائدة: ٤٤.

(٣) ينظر الموافقات: ٢/ ٣٨.

(٤) ينظر تفسير الرازي: ١٩/ ١٦، وروح المعاني: ١٤/ ١٦.

(٥) ينظر الرازي: ١٩/ ٦٠، وتفسير روح المعاني: ١٤/ ١٦.

ولو تدبرنا هذا القرآن لرأينا وسائل الحفظ قائمة ومتعددة، وأن الله قد هيأ له الاسباب المختلفة لحفظه وسلامته، والتي كان منها:

١ـحفظه من استراق السمع له.

حيث هيأ الله الشهب والنيازك السماوية أن تستعد لضرب كل شيطان مارد من الجن يحاول أن يسترق السمع حينما ينزل القرآن[١]. حتى لا تختلط معلومات الجن المسترقة بما أنزل في القرآن فلربما يشوشون على بعض الناس أن هذا من كلام الكهان أو المنجمين حيث كان الجن يسترقون السمع من ملائكة السماء ثم يلقونها إلى أعوانهم من الكهان فيلبسون على الناس أنهم يعلمون الغيب[٢]، وهذا ما أعلنه القرآن على لسان الجن الذين اعترفوا به حينما بعث النبيﷺ، ولم يكن يعلمون به ولا بنزول القرآن، لكنهم شاهدوا كثرة الشهب وحراستها المشددة للسماء كما قال اللهﷻ: ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً، وأنا كنا نقصد منها مقاعد للسمع، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾[٣] فكانت الشياطين تسترق في بعض الاحوال فلما بعث الرسول ﷺ ونزل القرآن كثر الرجم وزاد زيادة ظاهرة حتى تنبه لها الانس والجن ومنع الاستراق أصلاً.

وجاء في هذا المعنى قولهﷻ: ﴿أنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب، وحفظاً من كل شيطان مارد، لا يسمعون إلى الملا الأعلى، ويقذفون من كل جانب،

(١) ينظر الموافقات: ٢/ ٣٨.

(٢) ينظر فتح القدير: ٥/ ٣٠٥.

(٣) سورة الجن: ٨-٩.

دحوراً ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب﴾[1]، أي يرمون من كل جانب من جوانب السماء بالشهب إذا ارادوا الصعود لاستراق السمع، ولم تكن الشياطين ترمى قبل البعث رمياً يقطعها عن السمع، ولكن بعد المبعث رميت في كل وقت حتى صارت لا تقدر على استراق شيء من السمع إلا من خطف خطفة فاتبعه شهاب ثاقب[2].

٢ـحفظه يتيسر حفظه للنبيﷺ.

ومن اسباب حفظه ما هيأه الله لنبيه الكريم من حرصه الكبير على حفظه واستظهاره، وأنه كان يحرك به لسانه وهو في أشد حالات الحرج التي كان يتلقى اثناءها القرآن، وكان يستعجل بقراءته، لكن الله وعده وطمأنه بأنه سيجمع له القرآن ويحفظه في صورة وييسر عليه قراءته فقال له ربه ضامناً ذلك: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم أن علينا بيانه﴾[3] فكانﷺ ينازع جبريل عليه السلام القراءة خوفاً أن يتفلت منه فأمر بأن ينصت له ولا يعجل بقراءته، وأمره بالانصاف وطمأنه على حفظه وأن الله سيعينه على ذلك ويوفقه[4].

ومع هذه الكفالة الربانية، فقد كانﷺ حريصاً على مدارسته مع جبريل، فكان يعارضه به في كل عام مرة، وعارضه في العام الذي توفي فيه مرتين[5].

---

(١) سورة الصافات: ٦-١٠.

(٢) ينظر الكشاف: ٤/ ١٦٨، وفتح القدير: ٤/ ٣٨٧، و٥/ ٣٠٦.

(٣) سورة القيامة: ١٦-١٩.

(٤) ينظر الكشاف: ٤/ ١٩١، والرازي: ٣/ ٢٢٤.

(٥) ينظر جمال القراء للسخاوي: ٤٢٣/٢. وقد سنده عن النسائي في فضائل القرآن.

٣ـ حفظه بكتابته وجمعه وتهيأة الحفظة له.

فقد كان النبيﷺ يتخذ كتاباً يكتبون عنه الوحي، فما من آيــة إلا وأمــر بكتابتها زيادة في التوثيق، وكان الذي يكتبون له ممن عرفوا بكتاب الوحي أكثر من أربعين كاتباً وكان يأمر أن يمحى بكتابه أي حديث أخر مخافة أختلاطــه بــالقرآن، وقال: (من كتب على شيء غير القرآن فليمحه)، وكانت كتابتــه أنــذاك علــى العسب وجريد النخل والاكتاف، ولكنه كان قد كتب كله وأن كان متفرقــاً، ثم جمع على شكل مصحف كامل في صحف في عصر ابي بكبر الصديق ﷺ في القصــة المعروفة بعد أن أمر زيد بن ثابت بكتابته فكتبه بمعونة جملة من الصحابــة، ثم جمــع مرة أخرى في عهد الخليفة عثمان ﷺ حينما حصل خلاف في بعــض القــراءات وتوحدت المصاحف في عهده وتوحدت عليها الامة الإسلامية[١].

وأما حفظته من الصحابة عن ظهر قلب، فقد حفظه الكثــيرون واشــتهر منهم العشرات بحفظه وقد قتل منهم يوم اليمامة وفي بئر معونة ما يزيد على مائــة واربعين قارئاً[٢]، وهذه خصيصة معلومة لهــذه الأمــة المحمديــة أن (أناجيلــهم صدورهم)، (فكان من اسباب حفظه أن الصحابــة اشــتغلوا بجمعــه وقيظــهم الله لحفظه)[٣].

ولم يتوقف حفظ القرآن على عهد الصحابة. بل سخر الله في كل عصــر لحفظه عن ظهر قلب آلاف المسلمين، والى وقتنا هذا الذي هيأ لــه مــن الحفــظ

(١) ينظر في ذلك كتب علوم القرآن عامة ومنها مناهل العرفان: ١/ ٢٣٥، وكيف نتعامل مع القرآن: ٢٦.

(٢) ينظر الاتقان: ١/ ٢٠٠.

(٣) ينظر تفسير الرازي: ١٤/ ١٦٠، وروح المعاني: ١٤/ ١٦.

والكتابة والرعاية ما لم يتفق لكتاب آلهي ولا غير الهي، فأهل الكتاب لم يحفظوا كتب رسلهم في الصدور ولا في السطور[1].

(فحفظه ميسر على الصغار في اقرب مدة، ويوجد في هذه الأمة في هذا الزمان مع ضعف الإسلام في أكثر الاقطار أزيد من مائة الف -بحيث يمكن أن يكتب القرآن من حفظ كل منهم من الأول إلى الآخر، بحيث لا يقع الغلط في الاعراب فضلاً عن الألفاظ)[2].

٤-حفظه الواقعي من أن يتطرق إليه أحد بالتحريف.

وهذه هي محصلة هذا الحفظ فأننا وجدناه محفوظاً لم يتلاعب به أحد، ولن يحاول أحد ثم تثبت محاولته لتغيير شيء منه، يقول الإمام الرازي: (واعلم أنه لم يتفق لشيء من الكتب مثل هذا الحفظ. فأنه لا كتاب إلا وقد دخله التصحيف والتحريف والتغيير، أما في الكثير منه أو في القليل، وبقاء هذا الكتاب مصوناً عن جميع جهات التحريف، مع أن دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على ابطالة وفساده -من أعظم المعجزات، وأيضاً أخبر الله عن بقائه محفوظاً عن التغيير والتبديل ....فكان هذا اخباراً عن الغيب. فكان معجزاً قاهراً)[3]. نعم أنه الواقع الموجود المشاهد (فقد قيض الله له حفظه بحيث لو زيد فيه حرف واحد لأخرجه الالف من الأطفال الأصاغر فضلاً عن القراء الأكابر)[4].

فحماية الله واضحة لهذا القرآن وإلا فأن اليهود وهم الد الاعداء للنبيﷺ، وكانوا يتلمسون كل زلة، ويترصدون حركات النبيﷺ، فلو وجدوا في القرآن

(١) ينظر تفسير المنار: ٨/ ١٤.

(٢) أظهار الحق: ٢/ ٥٣.

(٣) تفسير الرازي: ١٩/ ١٦١.

(٤) الموافقات: ٢/ ٣٩.

ما يمكنهم تحريفه لفعلوه، لكنهم لم يسجل لهم التاريخ شيئاً من ذلك ولم يطعنوا فيه من هذا الجانب. وكذلك شأن الفرق الإسلامية مع ما فيها من خلاف وكثرة النزاعات وتقولهم على رسول اللهﷺ، فلم يجرؤا على أن يزيدوا في القرآن شيئاً[1].

فالحمد لله على أن خصنا بهذا الكتاب المحفوظ المصون من كل تبديل حتى أن علماء القراءة لا يقبلون أية قراءة ما لم تكن ثابتة متواترة وردوا كل قراءة خلت من شرط التواتر مع صحة اسناد بعض القراءات ووجودها في الكتب الصحيحة.

(١) ينظر القرآن رؤية تربوية: ١٢٥، وكيف نتعامل مع القرآن: ٢٥.